بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مضت خمس سنوات على ظهور الجزء الأول من هذا التفسير البيانى ، نفدت خلالها ثلاث طبعات منه ، وظهرت منه طبعة أخرى مسروقة فى بيروت ، قبل أن يتاح لى تقديم هذا الجزء الثانى الذى طال انتظاره .

وعلى مدى تلك السنوات ، تابعت العكوف على تدبر البيان القرآنى والانقطاع لخدمة كتابنا الأكبر ، فكنت كلما اجتليت باهر أسراره البيانية ، ألفيت من الصعب أن أقدمها على النحو الذى يفى بجلالها ، وتهيبت أن أؤدى بالمألوف من تعبيرنا ، أسراراً من البيان المعجز تدق وتشف ، حتى لتجل عن الوصف وتبدو كلماتنا حيالها عاجزة صماء !

فإن أكن قد جرؤت على تقديم هذا الجزء الجديد من التفسير البيانى بعد طول تهيب ومعاناة ، فليشفع لى أنى حشدت له كل طاقتى وجهدى ، وأن الأمر فيه يتجاوز كل طاقة وجهد .

* * *

والمنهج المتبع هنا ، هو الذى خضعت له فيما قدمت من قبل ، بضوابطه الصارمة التى تأخذنا باستقراء اللفظ القرآنى فى كل مواضع وروده ، للوصول إلى دلالته ؛ وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها فى الكتاب المحكم ، وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، ثم سياقها العام فى المصحف كله ، التماساً لسرها البيانى .

وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير فى خدمة هذا المنهج ، فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التى نتدبرها من النص القرآنى ، عن طريق لمح الدلالة المشتركة فى شتى وجوه استعمالها لكل لفظ . وواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أى نص فى لغة

ما ، دون فقه لألفاظه فى لغته . ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة ، من شتى الدلالات المعجمية ، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به .

والقول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية ، لا يعنى تخطئة سائر الدلالات المعجمية ، كما أن إيثار القرآن لصيغة بعينها ، لا يعنى تخطئة سواها من الصيغ فى فصحى العربية . بل يعنى أننا نقدر أن لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجز ، فنقول إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنيةٌ ، ثم لا يُعترض علينا بأن العربية تعرف صيغاً ودلالات أخرى للكلمة .

* * *

والأمر كذلك فيما يهدى إليه الاستقراء من وجوه بيانية وظواهر أسلوبية ، نقدمها منه دون أن نخشى فيها مخالفةً لبعض قواعد النحويين وأحكام البلاغيين . لأن الأصل أن تُعرض قواعدهُم وأحكامهم على البيان الأعلى ، لا أن نعرض القرآن عليها ونخضعه لها . ويبدو أننا فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فى قواعد النحو المدرسية وأحكام الصنعة البلاغية ، فى ضوء ما هدى ويهدى إليه التدبر الاستقرائى لكتاب العربية الأكبر ، فى بيانه المعجز[1] .

كما نتنفع بجهود المفسرين حين نعرض أقوالهم على القرآن الكريم ، فنقبل منها ما يحتمله نصًّا وسياقاً . ثم يكون إيرادنا للأقوال الأخرى التى لا يقبلها النص ، لفتاً إلى وجه الشطط فيها أو التكلف والاعتساف ، وتنبيهاً إلى ما ينبغى من حذر وحرص ، لاتقاء التورط فى مقحم التأويلات المذهبية والمدسوسات الإسرائيلية .

* * *

وأرانى فى حاجة إلى تقرير مسألتين فى المنهج :

أولاهما : أن المرويات فى أسباب النزول موضع اعتبار فى فهم الظروف التى لابَسَتْ نزول الآية . مع تقدير أن الصحابة الذين عاصروا نزولها ورُويت عنهم أقوال

(١) عالجت هذه القضية بشىء من التفصيل فى بحث (من أسرار العربية فى البيان القرآنى) نشرته جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٢ .

ثم تفرغت لدراستها فى كتاب (الإعجاز البيانى للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق) ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٢

فيها ، ربطها كل منهم بما وَهِمَ أو فهم أنه السبب فى نزولها . وهذا هو معنى قول علماء القرآن : إن المرويات فى أسباب النزول يكثر فيها الوهم .

ونقدر معه أن السببية فيها ليست بمعنى العِلِّيَّة التى لولاها ما نزلت الآية . وأن العبرة فى كل حال ، بعموم اللفظ المفهوم من صريح نصها ، إلا أن يتعين الاعتبار بخصوص السبب الذى نزلت فيه بدليل من صريح النص أو بقرينة بينة .

والأخرى : أن ترتيب النزول موضع اعتبار كذلك ، لفهم السياق العام لما نتدبر من آيات القرآن ودلالات ألفاظه وخصائص بيانه فى المصحف كله « ولو كان مِن عِندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

* * *

وبعدُ وقبل ، فإن القضية الكبرى فى هذا التفسير ، وكل تفسير ، هى أنه لا يعنى بحال ما ، تقديم كلمة يمكن أن تقوم مقام الكلمة القرآنية فى سياقها ، على وجه المماثلة والترادف ، فهيهات لبشر أن يأتى بآية من مثل هذا القرآن .

التفسير ليس إلا محاولة للفهم على وجه الشرح والتقريب ، بالكلمات المفسِّرة ، لا على أنها والكلمات القرآنية سواء . ولعل هذا مما حمل المفسرين على الإطالة فى الشرح والتكثر فى وجوه التأويل للكلمة أو الآية القرآنية ، من حيث يتعذر علينا جميعاً الإتيان بكلمة أخرى مماثلة لها ، فى موضعها من البيان المعجز .

ولست بحيث أجهل أن المدى الذى بلغتُه فى محاولتى ، محدود بطاقتى وجهدى . ويظل المجال مفتوحاً لعطاء أبنائى الصفوة ، طلاب الدراسات القرآنية العليا الذين أحظى بصحبتهم فى أعرق الجامعات الإسلامية . ويظل مفتوحاً بعدنا لجهد أجيال من العلماء تتعاقب على تدبر كتابنا الأكبر فتدرك منه ما فاتنا أن ندركه ، وتستشرف لآفاق قصُرتْ محاولتنا عن مداها .

ويبقى من أسراره ما يفوت طاقة البشر :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » . صدق الله العظيم

المغرب { شوال ١٣٩٧ هـ
أكتوبر ١٩٧٧ م